The art of description according to Sheikh Abdullah bin Fodi

(Objective art study)

Abbo Souleymanou

ENS Université de Maroua, Rep. du Cameroun

*Corresponding author: abbo.lawana@gmail.com

Abstract:

None of the countries of sub-Saharan Africa left a legacy in literature in the nineteenth century AD, like Sheikh Abdullah bin Fodio; and the region is proud of the works of this genius, and their value, completely, but for their inclusion of most of the sciences from: history, language, grammar, morphology, logic, theology, presentations, and literature. There was not in West Africa more knowledgeable than him at that time. His poems tend to follow the ancients in buildings and structures, and their vocabulary is ancient, and some of them express the African environment, with multiple purposes within one poem. His poems in description represent a great development in the method of descriptive poetry in Arab-African literature. Because it was singled out to describe the war and what happened in it, without digressing beyond the scope of the topic, and this is an unusual phenomenon in the era before the so-and-so era, and the description of the desert is one of the purposes that did not receive the attention of poets of this era, and perhaps the poet with this poem is unique in dealing with these two purposes We have not found another poem that described the war and the desert, at least in such detail. The research also aims at a literary study of these selected poetic texts. This is in two chapters and a conclusion. The first topic is a brief historical study on the poet, and the second topic: is a presentation of some of his poetic texts in the poetry of description that the researcher's knowledge reached, and then the conclusion, which is the most important results obtained by the researcher. The descriptive - analytical approach was used by the researcher when studying texts, as he followed the historical method in studying his life, as I can claim that I relied in one way or another on the integrative approach, as the researcher saw it as the most complete curriculum to bear the burdens of study in its various sections.

Key words: The art of description, Sheikh Abdullah bin Fodi, Objective art study.

فن الوصف عند الشيخ عبد الله بن فودي دراسة فنية موضوعية

أبُّو سليمانُو

المعهد العالي لإعداد المعلمين، جامعة مرْوَا جمهورية الكاميرون، 64429، الكاميرون.

الخلاصة:

وليس هنالك من بين علماء إفريقيا جنوب الصحراء، من ترك تراثاً ضخما في الأدب في القرن التاسع عشر الميلادي مثل الشيخ عبد الله بن فوديو؛ والمنطقة تفخر بمؤلفات هذا العبقري، لا لكثرتها، وقيمتها فحسب، ولكن لشمولها معظم العلوم من: تاريخ، ولغة، ونحو، وصرف، ومنطق، وعلم الكلام، وعروض، وأدب، ولم يكن في غرب أفريقيا أعلم منه في ذلك الزمن، فقصائده، تميل إلى إتباع القدامى في الأبنية والتراكيب، ومفرداتها ضاربة في القدم، وبعضها معبّر عن البيئة الإفريقية وأماكنها، مع تتعدد الأغراض داخل القصيدة الواحدة. هذا وتمثل قصائده في الوصف تطوراً كبيراً في منهج شعر الوصف في الأدب العربي الإفريقي؛ لأنّها أفردت لوصف الحرب وما جرى فيها، من دون الإستطراد بالحديث خارج نطاق الموضوع، وهذه ظاهرة غير معهودة في الحقبة قبل العصر الفلانية، وكما يعد وصف الصحراء من الأغراض التي لم تحظ بإهتمام شعراء هذه الحقبة، ولعلّ الشاعر بهذه القصيدة فريد دهره في تناول هذين الغرضين، إذ لم نعثر على قصيدة أخرى تعرضت لوصف الحرب والصحراء، على الأقل بمثل هذا التفصيل.،والبحث يهدف أيضاً إلى دراسة أدبية لهذه النصوص الشعرية المختارة، وذلك في مبحثين وخاتمة، أما المبحث الأول فعبارة عن دراسة تاريخية عن الشاعر بإيجاز، وأما المبحث الثاني: فعبارة عن عرض لبعض نصوصه الشعرية في شعر الوصف التي إنتهى إليها علم الباحث، ثم الخاتمة التي هي عبارة عن أهم النتائج التي حصل عليها الباحث. هذا وقد اتبعت المنهج الوصفي التحليلي عند دراسة النصوص، كما سلكت على المنهج التاريخي في دراسة حياته، ، بما يمكنني أن أزعم أنني اعتمدت بشكل أو بآخر على المنهج التكاملي، حيث رأيته أوفى المناهج لحمل أعباء الدراسة في أقسامها المختلفة.

الكلمات المفتاحية: الشيخ عبد الله بن فودي، فن الوصف، إفريقيا جنوب الصحراء، جيش الفتوح، وصف الصحراء.

المبحث الاول/ التعريف الشاعر

لست هنا في مقام البحث عن الشيخ عبد الله بن فودي وشاعريته، حتى أستعرض الآراء التي دارت حوله وتناولت شعره، ولكنني هنا في مقام البحث عن القيم الفنية في شعر الوصف عنده، ولذا فإنني سأقصر تعريفي بالشيخ عبد الله عن: نسبه، ومولده، ونشأته، ووفاته، لما لها من علاقة وثيقة بموضوع هذا البحث.

أوَّلاً: اسمه ونسبه: هو أبو محمد عبدالله بن محمد الملقب بـ"فودي" بن عثمان بن صالح بن هارون بن محمد الملقب بـ" غُوْرِطِ" ، بن جبّ بن محمد بن سمبو بن ماسران بن أيوب بن أبي بكر بن موسى جكل الذي وصل بقبيلته " تورب" إلى بلاد نيجيريا. ولغتهم هي لغة الفلانية، سبقوا الفلانيين إلى "حوص " بسبع سنين وجدّهم "موسى جَكَلْ" ينتمي إلى عشيرة (التُورْبِيِّين) الفَلَّاتَه الذين إستقروا في إمارة "غُوبَرْ".

أمّا نسب والده من جهة أمه فكذلك ينتمي إلى العشيرة نفسها، إذ يقول: "والدي هذا أمه مريم بنت جبريل بن حمّ بن عال بن جَبُّ الجد المتقدم"[١].

أمّا والدة عبد الله فهي كذلك تنتمي إلى العشيرة نفسها فهي: حواء بنت محمد بن عثمان بن حمّ بن عال... إلى آخر النسب، وأمها رُقيّة بنت العالم المشهور في قبيلتهم محمد بن سعد جنادان بن إدريس بن إسحاق بن ماسران... الخ. فالملاحظ أنه ينتسب إلى هذه العشيرة من كل الأطراف التي كونت أسرته.

ثَانيا: مولـده:

تضاربت الآراء حول زمان ومكان ميلاده، أمّا إذا ناقشنا هذه الآراء، ووضعنا في الحسبان قول عبدالله نفسه إنّ الشيخ عثمان يكبره بحوالي اثنتي عشرة سنة، فهذا يجعلنا نرجّح أن يكون تاريخ ميلاده سنة: ١٧٦٦م [٢]، ومهما يكن من أمر فإنّ الإختلاف حول ميلاد الشيخ عبدالله لم يكن بالشيء الكبير؛ إذا ما عُرف من ظروف الحياة في تلك الفترة؛ من تنقل وعدم إهتمام بالتواريخ وضبطها لدى سكان تلك المناطق، فحتى وقت قريب كان الناس فيها يؤرّخون بالأزمات المشهورة التي تشغل بال المجتمع ككل، كأن يقال ولد فلان في عام مرض الجدري أو عام الجوع أم سدر، وغالباً أنّ مثل هذه الأزمات تستمر لأكثر من عام.

ثالثا: نشأتـــه:

نشأ الشيخ عبدالله على المنوال نفسه الذي نشأ فيه أخوه عثمان؛ حيث ولد في بيت علم؛ فيه الأب المعلم والأم المعلمة والأخ والأخت والخال والعم كذلك فلا تجد في أسرته من ليس له مؤلفان على الأقل، ويؤكد كلامنا هذا كثرة من أخذ عنهم العلم ممن ذكرهم في كتابه (إيداع النسوخ من أخذت عنه من الشيوخ) فقد ذكر فيه حوالي ثمانية عشر شيخاً من أشهر الذين أخذ عنهم العلم فكان تسعة منهم من أهل بيته وعشيرته؛ كأبيه وأمه وأخيه وأعمامه وأخواله وأبنائهم. ويقول الوزير جنيد: "إنّ بيت عال هو أكبر بني موسى وهو بيت مشهور بالصلاح والخير، ومعروف بحفظ القرآن والخير، ودرس العلوم والاطلاع على غوامضه، فكان ذلك السرى يسير فيهم قرنا بعد قرن حتى خرج وظهر والد الشيخ، محمد المعروف بفودي رضي الله عنه"[٣]، فمنذ أن بلغ عبدالله الخامسة من عمره صار يتنقل بين الفقهاء إلى أن بلغ مرحلة النضوج العلمي ثم التأليف، وقد لاحظنا أنّ مراحله العلمية تنقسم إلى ثلاث مراحل:

- **المرحلة الابتدائية**: وقد بدأ هذه المرحلة على يد والده لما بلغ الخامسة من عمره؛ حيث علّمه القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وقد أسهمت والدته وجدته كذلك في هذه المرحلة بصورة فعالة.

- **المرحلة الثانوية**: وتتمثل في الفترة التي أودعه والده لأخيه الشيخ عثمان، وله عندئذ من العمر ثلاثة عشر عاما، يقول: " وقد تركني أبي في يده، بعد قراءة القرآن، وأنا ابن ثلاث عشرة سنة"(١) فهيأه الشيخ عثمان وأعدّه لخوض مرحلة التخصص والتعمّق، التي هي في المستوى الجامعي اليوم.
- **المرحلة الجامعية**: وتبدأ هذه المرحلة من بداية خروجه للتعلم خارج نطاق عائلته وأسرته، وإرتحل إلى العلماء سواء داخل مدينته أو خارجها، وهذه المرحلة تتسم بإتصاله بالأساتذة الكبار المتخصصين في مجالات بعينها، أمثال شيخه صاحب التأثير الكبير فيه، جبريل بن عمر، والشيخ محمد المغوري، ومحمد راج، ومحمد بوطنغ، والشيخ محمد الفربري، من فحول الأساتذة الأفاضل، ومحمد سمبو، وغيرهم من العلماء.

ويبدو جليا من كلام الأستاذ عبدالله أنّه وصل مرحلة التخصص في عام: ١٢٠١هـ عندما بدأ دراسة صحيح البخاري على يد شيخه محمد بن راج. يقول أحد الباحثين: " وقد لحظت أنّ معظم الذين غرسوا الأستاذ الشيخ عبدالله بن فودي ـ من أسرته ـ شغلهم الشاغل التعلم والتعليم؛ الأمر الذي أثر فيه تأثيراً قوياً وجعله ينكب على طلب العلم حتى أصبح فحلاً من فحول علماء عصره يشار إليه بالبنان، يلقب بالنادر، وبعربي السودان، فالإنسان كما يقول علماء علمي النفس والاجتماع: ابن بيئته التي عاش فيها وابن ثقافته التي تثقف بها"(١). وأما مذهبه وعقيدته: فكان الإمام الشيخ عبد الله ـ كما ذكر عن نفسه ـ مالكيا، أشعريا.

وقال محمّد البخاري بن الشّيخ عثمان يمدح عبد الله بن فودي ويصفه بعظيم فهمه وعلمه وبتقواه وتواضعه، فهو علاّمة القرآن، وحاوي السّبق في علوم الحديث، ومتبحّر في البلاغة، وبحرٌ محيط في النّحو فيقول:

ولقـــد حـــبـــاك الدّهر شيخاً ما له ... في العـــلم في تـــلـــــك الأراضي ماثل
أعـــــني إمـــام العصر عبد الله من ... سَـــــاد الـــشّـــيوخ النّبل مذْ هو شابل
شيْـــخ الـــــعلوم خـــديمه تبّاعها ... خدنٌ التّقيّ الحبر النّبيل الكامـــــــل
عـــــلم الـــهدى سعد الزّمان عماده ... حـــــانٍ رفـــيـــقٌ بالأنـام حلاحـــــل
ذو شـــــــدّةٍ في دينه متواضـــــعٌ ... ذو هـــيـــبـــةٍ بـــــرٍّ أمينٌ عامـــل
عـــلاّمـــة القرآن حـــاوي السبق في ... عـــــلـــم الحديـــث وفي البلاغة كافل (٤).

سَابِعاً: وفاته: كما كان الإختلاف في تاريخ ميلاده كان الإختلاف في زمن وفاته أيضا، لأنّ الباحثين لم يجدوا تاريخا محددا لوفاته، مثلما لم يجدوه لميلاده كذلك؛ ولذلك يستنبطونه من عمره الذي بلغ الستة والستين عاما، وقوله إنّ الشيخ عثمان يكبره باثني عشر عاما، توفي الشيخ عبد الله رحمه الله سنة ١٢٤٦هـ، الموافق: ١٨٣٠م، بمدينة (غندو٩ وله من العمر ستّ وستون سنة)، وهو الرأي الراجح(١). أما المصادر الذي اعتمدت عليها في نقل هذه القصائد فاثنان:

الأول: النسخة الأصلية من كتاب تزيين الورقات لعبد الله بن فودي، وقد طبعت بمطبعة جامعة إبادن النيجيرية عام ١٩٦٣م .

الثاني: مجموعة من الدراسات الأكاديمية السابقة، والمقالات المحكمة، والتي كانت لي سنداً ودليلاً وعوناً في رسم خطة البحث وفي الوصول إلى المصادر والمراجع التي إحتوت على المادة العلمية لهذا البحث.

المبحث الثاني: نماذج لبعض نصوصه الشعرية في غرض الوصف:

المراد هنا الوصف الأدبى الذي يتناول الطبيعة والإنسان، والآثار القائمة، والمنشآت الجميلة، والحوادث الكبيرة، وكل ما يعنى للإنسان تسجيله باللغة، ويعتمد على الخيال وصدق التعبير. وليس الوصف موضوعا جديدا فى الشعر العربي الإفريقي كما هو ظاهر لكل قارئ وباحث، بل أنّه من الفنون التى تطرق إليها الشعراء في القرن التاسع عشر الميلادي في النيجيريا وغيرها من البلدان الإفريقية، وقد أورده الدكتور علي أبوبكر من الأبواب الشعرية التي طرقها الشعراء في تلك الفترة حيث قال معللاً عن الشعر والشعراء في الفترة: "وليس لنيجيريا ـ في القرن التاسع عشر ـ شعراء على هذا المفهوم، وإنما لها علماء، وهؤلاء العلماء هم الذين قاموا بدور الشعراء، لأنّهم هم وحدهم الذين إستطاعوا أن يجيدوا اللغة العربية، ويتذوقوا سحرها وبلاغتها، ويتخذوها أداة للتعبير عن مشاعرهم وينظموا الشعر كما نظمه شعراء العربية وأدباؤها، وبالرغم من أنّ هؤلاء العلماء قد استخدموا بحور الشعر العربي إلا أنّ الأبواب التي طرقوها لا تزيد على سبعة وهي: الثناء على الله، والمديح، والوصف، والرثاء، والوعظ والإرشاد، والحكم والأمثال، والفكاهة" (٥).

وأما عن النماذج لشعر الوصف عند الشيخ عبد الله: القصيدة البائية التي وصف بها حياتهم الاجتماعية في القرن التاسع عشر، حيث يقول الشاعر:

وَلمَّا مَضَى صَحْبِي وضَاعَتْ مَآرِبِي ... وَخَـــــلـــــفت في الأخْـلَاف أَهْلُ الأكَاذِبِ
يَقُولُون مـا لا يَفْعَـلُون وتَابَـــعُوا ... هَـــــوَاهُـــم وطَاعُوا الشُّحّ في كُلّ وَاجِبِ
وَلَيْس لهُم عِلْم ولا يَسْـــــــألُونَه ... وأعْـــــجَـــب كُـلا رأيُه في المَذاهِـبِ
وَقَطّع أرْحَـــامًا وأزْرَى مَـــــعَارفًا ... وآثـــــر عـــن قَـــرْبَاه جَـمْعَ الأشَائِـــبِ
وَما همّهم أمر المســـــاجد بـل ولا ... مـــــدارس عـــلم بله أمـر الكتَـــائِبِ

وَهمّتهم ملك البلاد وأهلها لتحصيل لذّات ونيل المراتبِ
بِعَادَات كُفّار وأسْمَاء مُلكهم وتوْلِيَةِ الجُهّال أعْلَى المَنَاصِبِ
وَأكْلِ هَدَايَا الجَاهِ والفَيْءُ والرُّشَا وعُودٌ ومِزْمَار وضَرْب الدّبَادِبِ
وَإن قَرِينَ السُّوء يُعدي قرينه بِمَا فيه إعداءَ الصَّحَاحِ الأجَارِبِ
وَقد طار قلبي للمدينة ثاويا سِنين بِها شوقا وليس بآئِبِ
صرفتُ عِنانِي عنهمو متوجها إلى خَيْر خلق الله معطي الرَّغَائِبِ
وَكم ليلة بتنا بها نابغية ولا نَار إلا نارنا في السّبَاسِبِ
وَسمَارنا جِيرانُنا أقْرَبَاؤنَا بَعُوض وحيّات وجَمْع العَقَارِبِ[٦].

وإذا أمعنا النظر في هذه الأبيات نرى أن عبد الله بن فودي قد نجح إلى حد كبير في تصوير الحالة الاجتماعية في أسلوب متين واضح جلي، ولكنه لا يسعنا هنا أيضا إلا أن نقول إن تأثره بالمعلقات وعلى الأخص ببائية النابغة الذُّبياني واضح، وهي:

كِلِينِي لِهَمٍّ يا أمَيْمَةَ نَاصِبِ وَلَيْلٍ أقَاسِيهِ بَطِيء الكواكبِ

فكلتا القصيدتين بائيتان ومن بحر الطويل، وفضلا عن ذلك فهناك عشرة أبيات تنتهي بنفس الكلمات التي انتهت بها أبيات النابغة. فإنّها امتداد للغة الشعر الجاهلي، حيث تعتمد على ألفاظ جزلة غريبة، لم تتغيّر إلاّ تغيّرا طفيفا جزئيا اقتضته طبيعة التغيّر الذى حدث فى العقيدة.وليس من شك أن الشاعر ـ في هذه القصيدة ـ تقليدي يقتفي أثر شعراء الجاهلية في أسلوبه. وبناءً على هذا يمكن القول بأنّ الشاعر من أنصار لغة الشعر القديم، والعلّة في ذلك أنّ الشعراء لم يعرفوا ـ في تلك الفترة ـ عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة، ولا الأخطل، ولا جريرا، ولا الفرزدق، روّاد التجديد فى عهد بني أمية، ولم يسمعوا عن أبي تمام والبحتري والمتنبي، ولا عن أبي نواس وأبي العتاهية وبشّار وأمثالهم من روّاد التطوّر والتجديد في العصر العباسي، ولكن قرأوا لامرئ القيس والنّابغة وطرفة خصوصا زهير والحطيئة وغيرهما من الشعراء في العصر الجاهلي ممن أطلق عليهم اسم عبيد الشعر، كما عرفوا شيئا عن كعب بن زهير وحسّان بن ثابت وغيرهما من شعراء صدر الإسلام. ويرجع السبب في ذلك إلى أن دواوين أولئك لم تصلهم ودواوين هؤلاء وصلتهم[٧].

ومنها قصيدة (جيش الفتوح): هذه القصيدة قالها الشيخ عبد الله بن فودي في وصف الفتوح التي تحققت على أيدي الجيش الإسلامي تحت قيادته، وقد فتح الله لهم أكثر من عشرين حصنا من حصون الأعداء، ولهذا سمي جيشه في القصيدة بجيش الفتوح يبلغ عدد أبيات القصيدة ٣٧ بيتا وكلها تدور حول الحديث عن النَّوَى، وفقدان الأحبة في الجهاد، ووصف الحرب، ويبدو من الكلام الذي جاء قبل القصيدة أنها قيلت بعد عام هجرة الفوديين، أي سنة ١٨٠٥م.

هذا وللشيخ عبد الله قصائد كثيرة في الحرب وكلها على مستوى رفيع من البلاغة والروعة تذكر بعض منها:

بَدأتُ بحمْد الله والشّكر يتبع على قَمْعِ كُفّار علينا تَجمَّع

وداليته التي مطلعها:

ألا مَن مبلغ عنِّي لدَادٍ وزيْدٍ وكل ثَاوٍ في بِلاد

هذا وتمثل قصيدة جيش الفتوح تطورا كبيرا في منهج شعر الوصف في الأدب العربي الإفريقي؛ لأنها أفردت لوصف الحرب وما جرى فيها من حصار، وقتل وتشريد، وإقبال وإدبار، وأسر وغنيمة، من دون الاستطراد بالحديث خارج نطاق الموضوع، وهذه ظاهرة غير معهودة في الحقبة قبل العصر الفلانية (٧، ٨).

نص القصيدة:

تَذكّرتُ والذِّكْرَى تُثِيرُ لِذِي النَّوَى هُمومًا وفي الذِّكْرى تَهُبُّ الهَوا
أَخِلاَّءَ مَاتوا في الجهاد وغيره وَبُعْدِيَ عن شَيْخي فأرَّقَني الجَوَا
فمن مُبلغٌ عنِّي بَنِيَّ وإخْوتِي وأهْلي وجِيرَانِي ومن مَعَهم ثَوَا
بِأنِّي وَ دَنْدَا مَعَ عَلِيٍّ وجَمْعِنَا وأفْرَاسِنَا في الفتْح والعِزِّ والرِّوَا
فَتَحْنَا حُصُونًا بين كُنْدَا وَكُنْدُطَا يَزيدُ على عِشْرين بِالقَهْرِ وَالقُوَا
وسالمنا رغما سِوَاهَا فأسْلَمَتْ بِظَاهِرها والله يعلم ما انطَوَا

وفي اثنين مـع عَشْرِ المُحَرَّمِ فَتَحْنَا عَظِيمَ الحُـصُونِ حِصْنَ فُودِ الذِي غَوَا
فـــغَـــادَرَ في ذَا الحِصْنِ مَالًا كَأَنَّه لـــقَـــارُونَ لـــم يَأْخُذْ بِزَادٍ إلى القِوَا
سَـــــمَا جَيْشنا جَيْشَ الفُتُوحِ فَكُلّنا حَـــوَى من فُـــتُوحَاتِ الغَنَائِمِ مَا حَوَا
ولـــيْـــس لـــنا أمر يُسِيءُ قُلوبنا من الدين والـــدنيا سوى وِحْشَةِ النَّوَا
وفَـــقْـــدِ أحِـــبَّـــاءٍ كِـرام تَتَابَعُوا لِـــجَـــنَّـــات عَـــدْنٍ في فِرَارِي وَثُنْثُوَا
مَـــتَى مَـــا تَـذكرت الإمام وحِزْبَهُ تَـــمُـــوج في قَلبي بُحُورٌ من الدَّوَا
فـــمِـــن قَـــتْلَاهم فِي جَـــهَنَّم دَائِمًا ومَـن فِي جِنَانِ الخُلْدِ لَيْسُوا عَلَى اسْتِوَا
فَـــلَـــسْـتَ تَرى إلا مُغِيظًا وَمُخْنَقًا كَـــوَى غَيْرَه عن نَزْعِ سَهْمٍ أوِ اكْتَوَى
فَـــوَ الله لَـــولا خَـــنـــدَقٌ وَمُمَرَّدٌ عَـــمِـــيـــقٌ طَوِيلٌ لاسْتَحَالُوا هَبَا الكُوَى
رحـــلـــنَـــا إليهم بالعيال وما لنا حَـــصـــرنَـــاهم شَهْرا بِبَابِهِم الحِوَى
ولَـــم يَـبق بيت بين رِيم وحصنهم و مَـــازُم و مَـــازُوزِي لذلك ما خَوَى
فَـــخَـــلوا لـــنا أقواتهم وبلادهم ونَـــحْـــن حِوَاءٌ بين زِرْوَ وَطَانْ رُوَى
وَيَـــوم أتَـــونَـــا للقتال فأدْبَرُوا نُـــقَـــتِّـــلُـــهُم من تِلِّ مَاسُوا لِدَنْبَوَى
وكَـــمْ مَـــرة جاءوا بيانا فأقشعوا ومـا فِـيـهم من صوب صاحبه ضَوَى
وأخْـــرى أتوني فيه خامس خمسة فـــولّـــوا وما نَـالوا الذي جمعهم نَوَى
وطَـــوْرًا أتَـوا جمعا وحينا توزعوا بِـــشَـــرق وغـرب ثم خاب الذي غوى
ومَـــا سَـــاعة إلا يصخ سماعنا صُـــرَاخ فـــتـــلقَاهم سِراعًا بِلَا التَّوَى
عَـــلى كُـــل جرداء وأجرد شيظم تَـــراه كَـــصـــفْـــراء الجراد إذا اسْتَوَى
قَـــد اعتاد غَـارات الصباح تخاله إذا ما جرى فوق الـرُّبى طار في الهَوى
فَـــلـــمَّـــا رأونَـــا لا نمل جهادنا لـــقـــتـــل وأسر جلهم خاف فارعوى
ففروا إلى البـلدان شتى وجمعهم بِـــجَـــمْـــع أناس كان في سبإ بوى
فَـــللـــه حَـــمْـدا أولا ثم آخرا فَـــقَـــد تم تظمي وهو حال لمن رَوَى

التعليق على القصيدة:

افتتح الشاعر هذه القصيدة بتسجيل حنينه إلى من مات في الجهاد من أخلائه، ثم ذكر أن النوم قد فارق عينيه لبعده عن شيخه. ثم طلب من يحمل أخبار فتوحاته العديدة، وانتصاراته المتكررة إلى بنية وإخوته وأهله وجيرانه، فقد فتح هو وفرسه "دندا" وخادمه "علي"، وفرسانهم بالقوة والقهر عددا كبيرا يربو على العشرين من حصون الأعداء المنيعة بين (قندا وكندطا) كما أرغموا آخرين على المسالمة فأسلموا في الظاهر، لكن الله يعلم ما يضمرون فقال:

تَـــذكّرتُ والـــذِّكْرَى تُثِيرُ لِذِي النَّوَى هُـــمومًا وفي الـذِّكْرى تَهُـبُّ الـهَـــوا
أَخِـــلاَّءَ مَـــاتوا في الجهاد وغيره وَبُـــعْـــدِيَ عن شَيْـخي فأرَّقَـني الجَوَا
فـــمن مُـبلغٌ عـــنِّي بَنِيَّ وإخْوتِي وأهْـــلي وجِـيـرَانِي ومـن مَعَهم ثَوَا
بِأنِّي وَ دَنْـــدَا مَـعَ عَـــلِيٍّ وجَمْعِنَا وأفْـــرَاسِـــنَـا في الـفتْح والعِزِّ والرِّوَا
فَتَـحْنَا حُـــصُونًـا بين كُنْدَا وَكُنْدُطَا يَـــزِيـــدُ على عِـشْرين بِالقَهْرِ وَالقُوَا

ثم أخذ يعدد الحصون المفتوحة على أيديهم، وهي: كندا، ولم، وماسو، وكلكلو، وزيم فلم، وحصنا دنكا وباندا،وغيرها من الحصون المنيعة، ثم انتقل إلى ذكر قائد جيش أهل (كب) قائلا إنه فر وترك خلفه مالا كثيرا يشبه مال قارون وذلك في الأبيات التالية:

وســـالمـــنا رغـــما سِوَاهَا فأسْلَمَتْ بِـــظَـــاهِـــرهـا والله يـعلم ما انطَوَا
وفي اثنين مـع عَشْرِ المُحَرَّمِ فَتَحْنَا عَظِيمَ الحُـصُونِ حِصْنَ فُودِ الذِي غَوَا
فـــغَـــادَرَ في ذَا الحِصْنِ مَالًا كَأَنَّه لـــقَـــارُونَ لـــم يَأْخُذْ بِزَادٍ إلى القِوَا

ثم إنتقل إلى وصف جيشهم الذي يسمى جيش الفتوح، وقال إنه علا وسما حتى تم له فتوحات كثيرة أدرت لهم من الغنائم ما ليست بقليل، وبين أنه ليس هناك شيء يقلقهم في الدين وفي الدنيا سوى وحشة فقدان الأحباء الكرام الذين سقطوا ضحايا الحرب،

وخص بالذكر بين هؤلاء الإمام محمد ثمبو وجماعته، فذكراهم تسبب له المرض، ثم رد على الأعداء من قبيلة غوبر والتوارق سرورهم من قتلى المسلمين قائلا إن الحرب سجال ودولة، وأن مآب قتلى المسلمين ليس سواء مع مآب قتلى الكفار، فقتلاهم في جهنم وقتلى المسلمين في جنة الخلد وذلك من قوله:

سَـــــــمَا جَيْشنا جَيْشَ الفُتُوحِ فَكُلّنا حَـــــوَى من فُـــتُوحَاتِ الغَنَائِمِ مَا حَوَا

إلى قوله:

فـــــمِـــــن قَـــتْلَاهم فِي جَهَنَّم دَائِمًا ومَن فِي جِنَانِ الخُلْدِ لَيْسُوا عَلَى اسْتِوَا

وبعد ذلك عاد إلى ذكر أيامهم في القرى والحصون التي وقعت تحت أقدام جيش الفتح، والقرى وذكر أيضا سيرهم إلى مدن أخرى وحصارهم لها، ثم شرع في ذكر أحوال الغزاة وما دار في الحرب من القتل والطرد والهرب، ثم بين أنهم رحلوا إلى أعدائهم بعيالهم وأموالهم وحاصروهم شهرا كاملا مقيمين خلاله على بوابتهم ولم يبق بيت بين رِيمٍ وحصنهم، وقد يكون ذلك بسبب تخريب الكفار لمنازلها، أما مازم ومازوزي فلم يتم تخريبهما، ولقد تم جلاء الأعداء حتى تركوا لهم أطعمتهم وبلادهم، على حين شيدوا هم أكواخهم بين زَرْوَ وطَنْ رُوَا وذلك من قوله:

فَـــلَـــسْـــتَ تَرى إلا مُغِيظًا وَمُخْنِقًا كَـــــــوَى غَيْرَه عن نَزْعِ سَهْمٍ أوِ اكْتَوَى

إلى قوله:

وَيَـــــــوم أتَـــــونَـــــا للقتال فأدْبَرُوا نُـــــقَـــــتِّـــــلُـــــهُم من تِلّ مَاسُوَا لِدَنْبَوَى

ثم قال إنه كثيرا ما يأتيهم الأعداء لقتالهم لكنهم يصدونهم صدا يرغمهم على الإدبار هاربين، ثم يقاتلونهم من تِلّ مَاسُوَا إلى دَنْبَوَى. وكثيرا ما يهاجمهم الأعداء ليلا لكنهم ما يلبثون أن يفروا متفرقين، وكشف أن الأعداء ذات مرة هاجموا خمسة كان هو واحد منهم، لكنهم أرغموهم على الانسحاب خائبين. وكشف عن خطة الأعداء في الهجوم، فهم طورا يأتون جماعة وطورا آخر يأتون متفرقين من شرق وغرب، غير أنهم في كلتا الحالتين يخيب آمالهم، وأوضح أنه لا تمضي ساعة إلا ويقرع أسماعهم صراخ النجدة من المقاتلين، وأنهم ما أن يسمعوا ذلك حتى ينجدوهم بلا توان. ثم انتقل إلى وصف الأفراس التي يقاتلون بها أنها عظيمة وصلبة حتى صارت جرداء من الشعر نتيجة كثرة خوضها للمعارك. وقد نظر في ذلك إلى قول عنترة بن شداد في معلقته:

وَالخَيْلُ تَقْتَحِمُ الغُبَارَ عَوَابِساً، من بَيْنِ شَيْظَمَةٍ، وأَجْرَدَ شَيْظَمِ

وشبهها في سرعة تنقلها بصفراء الجراد حين تطير، وأضاف أن الأفراس قد اعتادت غارات الصباح، وأنها حين تجري يخيل لك أنها تطير فوق الهضاب، وإنتقل إلى وصف الأعداء قائلا إنهم لما رأوا تجلدهم وعدم مللهم في القتل والأسر في سبيل الجهاد خافوا واضطربوا وتركوا أمر القتال وفروا جميعا إلى بلدان مختلفة، مثلهم مثل أهل سبأ، وهم قوم انقرضوا، وختم الشاعر القصيدة بالحمد لله أولا وأخيرا، وبشيء من الفخر بأن القصيدة تحلو لمن يرويها بقول:

ففروا إلى البـــلدان شتى وجمعهم بِـــــجَـــــمْـــــع أنُاسٍ كَان في سَبَإٍ بَوَى
فَـــــللـــــه حَـــــمْـــدا أولا ثم آخرا فَـــقَـــدْ تَمَّ نَظْمِي وَهْوَ حَالٌ لِمَنْ رَوَى

وقد صور هذه القصيدة وصف الحرب في العصر االفلاني منهجا وأسلوبا ولغة وخيالا، فأول ما نلاحظ فيها أن الشاعر لم يبال بوصف دقائق الحرب، كوصف اكفهرار الغبار الذي نجده في مثل قول بشَّار:

كَأَنَّ مُثارَ النَقْعِ فَوْقَ رُءُوسِنا وأَسْيافَنَا لَيْلٌ تَهاوَى كَواكِبُهْ

أو وصف البسالة والتفتك والتمزق الذي نجده عند عنترة في قوله:

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوَقِيعَةَ أَنَّنِي أَغْشَى الوَغَى وأَعِفُّ عِنْد المَغْنَمِ
وَمُـــــدَجِّجٍ كَـــــرِهَ الكُمَاةُ نِزَالَهُ لا مُـــــمْـــــعِنٍ هَـــرَباً ولا مُسْتَسْلِمِ

جَادَتْ يَدايَ لهُ بعاجِلِ طَعْنَةٍ بِمُثَقَّفٍ صَدْقِ الكُعُوبِ مُقَوَّمِ
فشَكَكْتُ بالرُّمحِ الطَّوِيلِ ثِيابَهُ لَيْسَ الكَرِيمُ على القَنا بِمُحَرَّمِ

أو وصف خصائص السيف والرمح الذي نجده في قول الشنفري:

هَتُوفٌ من المُلْسِ المُتُونِ يَزِيُهَا رَصَائِعُ قد نِيطَتْ إليها ومِحْمَلُ
إِذَا زَلَّ عَنْهَا السَّهْمُ حَنَّت كأَنَّهَا مُرَزَّأَةٌ ثَكْلَى ترِنُّ وتُعْوِلُ

لكننا بدل من ذلك كله نجد الشاعر يقول أنّهم فتحوا حصونا تزيد على العشرين بالقهر، وأن الأعداء فروا وتفرقوا في البلاد مثلهم مثل أهل سبأ، أما معمعة الحرب ونيرانها، فإن الشاعر لم يتعرض لذكر تفاصليها. وكما نلاحظ أيضا أنه لم يعتن بإيراد المعدات الحربية المتنوعة التي استعان بها الجانبان المتقاتلان لعل ذلك يساعدنا على الوقوف على مدى التطور الذي وصلت إليه الصناعة الحربية في تلك الحقبة من الزمن، ولكن الحقيقة التي يجب التنبه لها أن الشاعر ربما لا يحتاج إلى تلك التفاصيل كما احتاج إليها الشاعر العربي الذي اتخذ قرض الشعر مهنة وحرفة، وذلك لأسباب عدة منها:

١- أنّ الذي يعني هذا الشاعر أكثر هو الإعلان عن قوة عساكر المسلمين، وتدوين الغزوات التي خاضوها ومواضعها في سجل التاريخ، حفاظاً عليها من الضياع والنسيان، يدونها للأجيال القادمة كمواد تاريخية يتدارسونها، ولهذا لم يغادر غزوة أو موقعة من مواقع الحرب إلا وذكرها.

٢- أنّ الشاعر كما ذكرنا آنفا عالم فقيه، وقائد حرب باسل، رغبته الأساسية في نظم القصيدة تدوين الوقائع الحربية باللغة العربية تقديرا وإحياء لها وحفاظا عليها، وهي اللغة التي تمثل جانبا مهما من ثقافته وشخصيته، وجانبا أهم من عقيدة الإسلام. ولا شك أن الشاعر قد وُفّق إلى تحقيق هذين الغرضين.

ومنها وصف الصحراء: يبلغ عدد أبيات هذه القصيدة ٤١ بيتا، مطلعها:

ولمَّا مَضَى صَحْبِي وَضَاعَتْ مَآرِبِي وَخلَّفَت فِي الأَخْلَاقِ أَهْل الأَكَاذِب

وخاتمتها قوله:

عَلَيْكُم صَلاةُ الله ثُمَّ سَلَامُهُ بِأَصْحَابِكُم وَالآلِ يَا كَهْفَ هَارِبِ

ويبدو أن الشيخ نظم القصيدة بين عامي: ١٢٢١هـ و١٢٢٢هـ الموافق(١٨٠٧م)؛ لأنه كما قال نظمها في طريقهم إلى خير خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم ولم يخرجها لأحد حتى وصلوا بلدة كَنُو فألحّ عليه أهلها في إخراجها فكتبها لهم، ثم ألف لهم كتاب (ضياء الحكام) وكان ذلك في السنة الرابعة من هجرتهم؛ لأن هجرتهم بدأت يوم ١٠ من ذي القعدة عام: ١٢١٨هـ الموافق ٢١ من فبراير ١٨٠٤م (٩). والقصيدة بائية تدور مواضيعها حول وصف أحوال الناس السيئة من جهل، وترك لطلب العلم، وتضييع للأمانة، وتولية المناصب للجهال، وغير ذلك مما حمله على صرف عنانه عنهم متوجها نحو مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم كما تدور حول وصف الصحراء ومدح الرسول الكريم. هذا، ويعد وصف الصحراء من الأغراض التي لم تحظ باهتمام شعراء هذه الحقبة، ولعل الشاعر بهذه القصيدة فريد دهره في تناول هذا الغرض إذ لم نعثر على قصيدة أخرى تعرضت لوصف الصحراء، على الأقل بمثل هذا التفصيل. وسنختار من القصيدة الأبيات التي يصف الشاعر بها الصحراء وهي:

وَقَدْ طَارَ قَلْبِي للمَدِينَة ثَاوِيًا سِنِين بِهَا شَوْقًا وَلَيْسَ بِنَائِبِ
وَقَيَّدَ جِسْمِي عنه ذَنْبي حائرًا بِصَدْرٍ هَوَاءٍ فاقِدِ القَلْبِ ذَائِبِ
صَرَفْت عناني عنهم متوجها إلى خَير خلق الله معطي الرغائب
وَصَبَّرتُ نَفْسي في رُكُوبِ مَفَاوِزٍ خِلال فُيُولٍ كَالهِضَاب قَوَارِبِ
ولا أَثَرٌ في الأرض إلا الذي لها رَبِيعًا وصَيْفًا كَالبِنَارِ السَّوَاقِبِ
أسِيرُ بِلا علم ولا قَوْدَ قَائِدٍ وَنَيْلِ سَبِيلٍ في الفَيَافِي العَوَاشِبِ
بِخَمْسَة أَحْرَار كَذَاكَ الرَّقِيق مع ثَلاثَةِ أَفْرَاسٍ كَمِثْلِ الرَّكَائِبِ
نَشِيمُ عُطَاشًا حِينَ حَانَ نُزُولُنَا ذَوَائِبَ أَشْجَارِ المِيَاه الشَّوَارِبِ
وَكَم لَيْلَةٍ بِتْنَا بِهَا نَابِغِيَّةٍ ولا نَارَ إلا نَارُنَا في السَّبَاسِبِ
وَسُمَّارُنَا جِيرانُنا أَقْرَبَاؤُنَا بَعُوضٌ وَحَيَّاةٌ وَجَمْعُ العَقَارِبِ
خَمَائِلها والقَاعُ أَثْمَارُهَا الأَضَا جِدَارٌ وَدَارٌ والقُرَى كأْسُ شَارِبِ
أَوَانِسُنَا أَقْوَاسُنَا وَجِعَابُنَا رِمَاحٌ وَأَسْيَافٌ رِقَاقُ المَضَارِبِ

وَصَـــار لنا الآثَارُ للنَّاس بَعْد مَا قَـــــربْـــنَا لعُمْرانٍ عَجِيبَ العَجَائِبِ
وَأَولَى كلامُ النَّاس أحْرَى دِيَارُهُم وأنـــفُسُهُم صَارَتْ غَرِيبَ الغَرَائِبِ
فَـــقُلتُ وَذَا أمْرٌ يَسِيرٌ بِجَنبِ مَا نُـــــريـــدُ إذَا مَا حُمَّ نَيْلُ المَنَارِبِ
أَحَادِي المَطَايَا حُثَّهَا للمَشَارِقِ ولا تَـــلْـــتَفِتْ فِي سَيْرِنَا للمَغَارِبِ
فَإن حَظِيَتْ بالوَصْلِ فالله واهبٌ وإن أخْفَقَتْ فَـــالذنبُ فيه لذَاهِبِ

التعليق على القصيدة:

تمثل هذه القصيدة نموذجا حيّاً، وصوراً متكاملة للوصف في هذه الحقبة، رسم لنا الشاعر خلالها لوحة فنية رائعة تعكس بوضوح البيئة الصحراوية الإفريقية، ولا شك أن الشاعر قد أجاد في هذا الوصف إجادة تجعله في صفّ واحد مع أبرز وصافي الصحراء من الشعراء العرب قديماً وحديثاً، فها هو ذا الشاعر ينقل لنا الفيافي بحيواناتها وأشجارها وغياهبها وآثارها، وغير ذلك من مظاهر الصحراء نقلاً حياً صادقاً، هذا وقد تأثر في كثير من معانيه بالقصيدة الجاهلية، ولكن لم يكن ذلك منه تقليد أعمى، بل كان صادق العاطفة والشعور، فقد جعل صحراءه، على سبيل المثال، معشباً وذلك طبعا لواقع بيئته الجغرافية، على خلاف الصحراوات القاحلة التي عاش فيها الشعراء الجاهليون مثلا، يقول الشاعر إنّه صرف فرسه عن قوم وصف أحوالهم في أبيات سابقة، متوجها به نحو خير خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم وبما أنه كان عليه أن يقطع الفيافي الطروحة قبل وصوله مرماه. – وفي قطع الفيافي ما فيه من التعب والنصب-فقد صبر نفسه غير متعجل. ومن مغامرات السفر في الصحراء القاحلة مقابلة الوحوش وأنواع من الحيوانات الضارية وجها لوجه، مع قلة المحتمي. ومنها أيضا قلة المياه وعدم الأوانس مما يسير الذعر في نفوس الرحل، وكل هذا يحمل الراحل على الصبر أو التصبر.

والشاعر يسير بين فيول ضخام كالهضاب ملتمساً الماء في جوف الليل، ولم يجد في الأرض إلا آثار الفيول تلك، وقد وصف الآثار بأنّها كالبئار في الشكل والصورة، إلا أنّها غير عميقة، بل هي قريبة السقي. ثم ذكر الشاعر عدد المسافرين معه في الفلاة، فهم خمسة أحرار، وخمسة أرقاء، وثلاثة أفراس، وثلاث إبل وهم جميعا يسيرون في متاهات الفلاة بل سابق علم، أو إرشاد قائد بل ولا أثر يسيرون على معالمه، ولما حان وقت نزولهم اشرأبت نفوسهم إلى ذوائب أشجار المياه وهم عطاش. ثم شبه الليالي التي قضوها في الفلاة بالليل الذي وصفه الشاعر الجاهلي المشهور النابغة الذبياني حين أثقلته الهموم، وذلك في قوله:

كِـــلِيـــــنِي لِهَمٍّ يا أمَيْمَةَ نَاصِبِ وَلَـــيْلٍ أُقَـــــاسِيهِ بَطِيءِ الكواكبِ
تَطَاوَلَ حتى قلتُ: ليس بمُنْقَضٍ وَلَـــيْسَ الذِي يَهْدِي النجومَ بِآئِبِ
وَصَـــــدْرٍ أراحَ الليلُ عازِبَ هَمِّه تَضَاعَفَ فيه الحُزْنُ من كلِّ جانب

ثم شرع يعدد لنا أصدقاءهم وجيرانهم الجدد في الصحراء، وذلك على عادة الشعراء الجاهليين الذين يتخذون من بين الحيوانات أو أدوات الحرب جيرانا. فقال إن سمارهم بعوض، وجيرانهم حيات، أما أقرباؤهم فعقارب. وهذا يذكرنا قول الشاعر الصعلوك الشنفري الأزدي، في لاميته المشهورة:

وَلِي دُوْنَـــكُمْ أهْلُون: سِيدٌ عَمَلَّسٌ وَأرْقَـــطُ زُهْـــلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَيْئَلُ
هُمُ الأهلُ لا مستودعُ السرِّ ذَائِعٌ لَدَيْهِمْ ولا الجاني بما جرَّ يخذلُ

ثم ذكر أربعة أشياء هي نادرة الوجود في الصحراء، وهي: الخمائل (الأشجار الملتفة)، والقاع، والثمار، والأضا (الغدير) وشبهها بأربعة أشياء مألوفة في الحضر، فأشجار الصحراء بمثابة الجدار، وقيعانها تقوم مقام الدار، وأثمارها قرى الضيف، أما أضياتها فكأس شارب. ونفهم من هذا أن المشبه بها غير متوفرة في صحرائه، والمشبهات هي التي تقوم مقامها. ثم استمر الشاعر في ذكر أصدقائهم الذين استأنسوا إليهم، وهم –هذه المرة-أقواس، وجعاب ورماح، وأسياف. ثم قال إن آثار الناس التي رأوها بالقرب من البلاد لمن أعجب العجائب، بل كلام الناس، وديارهم وأنفسهم كل ذلك من غرائب ما سمعوا وشاهدوا، ولكن تلكم العجائب والغرائب أمر يسير لا يساوي شيئا إذا قورن بما كانوا يأملون ويرغبون فيه إذا تم لهم. وأخيرا، طالب الشاعر حادي مطاياهم أن يحثها نحو المشرق غير ملتفت نحو المغرب، فإن أوصلتهم المطايا الغاية والمنى فتلك هبة من الله وتوفيق، وإن عجزت فلا لوم إلا على الركاب المسافرين. وختم القصيدة بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

المصادر

(١) راجع: إنفاق الميسور في تاريخ بلادالتّكرور، صـ:٢١١.

(٢) راجع: ترجمته في: نصوص عربية من صكتو.. قاريونس ١٩٩٣م.ص:٤٥، وانظر: ترتيب الأصحاب، مخطوط غير مؤرخ، المركز الإسلامي، جامعة صكتو، نيجيريا، صـ:١٢، وانظر: عبد الله بن فودي وحياته العلمية/حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، العدد الرابع، سنة:١٩٩٨م، صـ:٥٧. وانظر: الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفلاني، مكتبة الزهراء للإعلام العربي القاهرة ١٩٩١م.

(٣) مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية، ص:١٢٣.

(٤) حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ط٢، المكتبة الإفريقية، سنة:١٩٩٣م /١٤١٤ه.صـ: ١٠٦.

(٥) الثقافة العربية في نيجيريا من ١٧٥٠ إلى ١٩٦٠ م، صـ: ٢١٥.

(٦) الحصن الرصين، ١٨٥، وتزيين الورقات، صـ: ٢٦٠.

(٧) الثقافة العربية في نيجيريا، صـ: ٣٨٦.

(٨) تزين الورقات، ص:٣٠، وحركة الشيخ عثمان بن فودي في نهضة اللغة العربية والثقافة الإسلامية، ص:٣، وانظر الإسلام في النيجيريا والشيخ عثمان بن فودي، ص: ١٠٧-١٠٩.

(٩) تزيين الوقارت عبد الله بن فودي، ص:٧٥.